ويرى الزئبق النور

بقلم: نبيلة عزوزي
المغرب

صباح اليوم جميل، أشعة الشمس تخترق زجاج النوافذ وتلفح أوجه التلاميذ، نسيم الربيع عليل، والطيور تصدح تسبيحاً لفالق الحب والنوى.. لولا سيجارة المدرس التي تخنق الصدور الصغيرة، السيجارة، تلك الملعونة نذير شؤم! المدرس متوتر يجوب بين الصفوف، وكأنه يبحث عن إبرة بين الأدغال، يرهب ويتوعد، العصا بشماله والقلم الأحمر بيمينه، يصحح التمارين المقترحة في مادة الرياضيات، الأرجل الصغيرة ترتعش خوفاً، والحناجر تهمس بالدعاء للنجاة من العقاب. تحدث السيجارة ضباباً في سماء الحجرة، ينبعث سعال من هنا وهناك، لا أحد يجرؤ على إظهار تضايقه من الدخان، ولا أحد يجرؤ على البوح بعدم الفهم «افهم أولاً تفهم، المهم أنجز التمرين» هذا ما حفظوه عن ظهر قلب، فترة تصحيح الواجبات المدرسية أثقل من المحافظ المحشوة بالكتب والدفاتر.. حتى أحمد، ذلك النحيف النجيب، يرتجف هذا الصباح، يجف حلقه ويشعر بغصة.. إنه المتفوق في الفصل بلا منازع، حاول إخفاء رأسه الصغير بين ذراعيه، غض من بصره، لئلا يلحظ المدرس عينيه الخائفتين، لم يسبق له أن عوقب على ترك واجب من واجباته. حاول أن يقول شيئاً، إلا أن لسانه شل.

الصفحة أمامه بيضاء، لم يكتب شيئاً. كل الأنظار مصوبة إليه، المدرس سينوه به ويربت على كتفه كعادته دائماً، لكن كل الظنون خابت، حينما انهال المدرس على كفيه الباردتين ضرباً، وكلماته تصفعه صفعاً حاول أن يحبس أدمعه، لكنها انسابت على خديه وعلى الصفحة البيضاء الملقاة أمامه، وينظر إليه زملاؤه وأفواههم فاغرة، ونظراتهم تطرح أكثر من سؤال.

وجاءت فترة الاستراحة، فخرج الصغار إلى حيث الشمس والفضاء الواسع، وبقي أحمد وحده مستمراً في مكانه، اقترب منه المدرس وسأله مرة أخرى:

– لِمَ لَمْ تنجز التمرين يا أحمد؟!

– لقد ذابت قطعة الشمع قبل أن أتم كل واجباتي المدرسية.

صعق المدرس، أحس بدوار شديد، أغمض عينيه، خال قامته الطويلة آخذة في الذوبان كتمثال ثلجي تحت شمس حارة، يدور حول نفسه وكلمات تلميذه كمغناطيس يجذبه جذباً إلى ماض يكرهه، يمقته، إلى ماضٍ ذاب فيه الشمع وعمره وكيانه وكل أحلامه.. يكره الماضي كرهه للشمع أو أشد! يتضاحك ملء فمه حتى تبدو نواجذه النخرة.

كم كان غبيا حينما حفظ قصيدة تتغنى بالشمع والأمل، فنال النقطة الأولى والإطراء، وصرخ صرخة لم تقتحم حنجرته، ولكنها دوت في أعماقه:

– هراء وهذيان!

نفث دخان سيجارته، سعل بشدة، ثم ألقى بها أرضاً، رفسها بقدمه وهو يلعنها، لو كانت أمه على قيد الحياة ورأته يدخن لتبرأت منه، السيجارة رمّلتها ويتّمت صغارها، أحرقت رئتي أبيه وهو في ريعان شبابه، وأحرقت قلبها.

تطلع عبر النافذة إلى الجبال المحيطة بالقرية، تمنى لو كانت المدرسة على قمة أعلى جبل، شيء رائع أن يرى القرية والناس والحقول من عل.

منظر الجبال الشاهقة يخنقه، وكأنه محاط بحرس غلاظ، حتى الثلج المكسوة به قممها يخاله رابضاً على صدره ويتمتم وقد طأطأ رأسه: «الثلج والشمع سواء، كلاهما يذوب، غير أن الثلج ينساب في الجداول فيبعث الحياة في الأرض الموات، أما الشمع فيحرق الحياة في كل شيء»!

انتهت حصة الاستراحة، عاد التلاميذ إلى مقاعدهم أما هو، فلا يزال في غفوته أمام النافذة، عشرون سنة مضت على تعيينه في هذه القرية النائية، لم يرغب في

الانتقال إلى مكان آخر، يعيش هنا بين الجبال والأطفال، لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد، يلقي تحية مقتضبة على زملائه، ويلج حجرة الدرس، ومن ثم، فلا أحد يسأله عن ماضيه ولا عن أحلامه.

حاول أن يروض نفسه على هذا الوضع، فلاعب الصغار، قسا وعطف عليهم، أحبهم كثيراً، لكنه لم يستطع أن ينسى أنه كان يوماً ما طفلا، زئبقا، كما كان يناديه مدرسوه وزملاؤه الصغار، كان سريع البديهة والخطو والغضب والفرح إذا جرى لم يقبض عليه أحد، وإذا سئل أجاب بسرعة.

كم كان فرحه حين أهداه مدرسوه كتاباً عن الكيمياء وعلبة شمع، لتفوقه آخر السنة الدراسية، وكادت أمه أن تطير فرحاً، احتضنته وقبلته ودعت له بحرارة، ثم استسلمت لنوم عميق، كانت منهكة بعد يوم كدح في بيوت الأغنياء. الكتاب شيق، فصل كامل يتحدث عن الزئبق وكيف يحول الذهب رمادا، التهم صفحاته، صارع النوم كثيرا ليكمل القراءة، أوقد شمعة أخرى، لكن النوم استولى عليه.. وذابت الشمعة، فالتهمت النيران الكوخ الصغير والأحلام والأم والإخوة والكتاب وكل شيء جميل بداخله، وألقت به وحيداً في الحياة، خامدا كغصن احترقت كل أوراقه من ملجأ إلى آخر.

تحسس أثر الحروق في يده وعنقه، إنه يختنق بين براثن الماضي، نظر إلى الأفق ليصرخ، ليهرب، ليتنفس، إلا أن الجبال كانت تحاصره من كل جانب ودموع أحمد تصب الزيت على الجمر المتقد بداخله.

عاد إلى مسكنه، كل شيء يدور في اتجاه واحد كالدوامة، الشمس تركض خلف القمم الشامخة.. ألقى بجسمه على فراشه، ارتجف برداً، سرت في جسمه قشعريرة، نبضات قلبه تزداد شيئاً فشيئاً، أطبق الظلام، لم يوقد المصباح الغازي، الصراصير تجوب الغرفة في سلام، صدى الأصوات والصخب يصم أذنيه، أصوات تنبعث من داخله، صراخ أمه وإخوته بين ألسنة النيران، وتصفيقات مدرسيه وزملائه وهو يصعد المنصة الشرفية ليتسلم جائزة «التلميذ المثالي» والكل يهتف: «الزئبق.. الزئبق» وينتابه شعور أنه فعلا زئبق يتجزأ إلى ذرات، تحول كل ما حوله إلى رماد. الأصوات تتعالى بداخله، الأبواق تجوب قريته أثناء الحملات الانتخابية، مرشحون كثر، ينثرون أوراقا زاهية الألوان هنا وهناك، كما ينثرون الوعود والأماني، والصغار يرددون وراءهم الشعارات كلعبة مسلية.. ستتم كهربة قريتكم وتعبيد طرقها.. ويختفي المرشح تلو الآخر وتبقى القرية في ظلامها الدامس وطرقها الموحلة.. آه ذلك الطريق المنعرجة بين التلال، حيث يقبع ضريح الولي بين المقابر، كانت النساء يخضبن تربته بالحناء ويغدق عليه الزوار بالشموع والنقود. فكر أن يختلس كل يوم شمعة، لكنه ركل الحجارة أمامه وأقسم أنه لن يسرق أبداً. سار نحو قبر أبيه، آه، نفر قليل تبع نعش أبيه، بعكس جنازات الأغنياء، وينبعث من داخله أصوات أقرانه وهم يتسابقون نحو آبائهم العائدين من السوق الأسبوعي، يقبلون أياديهم، ويلتهمون الحلوى، إلا هو، لم يجر نحو أحد، ولم يذق طعم الحلوى بعد وفاة والده.

انتشلته من أخطبوط ذكرياته، طرقات على الباب، هب واقفاً، فتح الباب الخشبي المهترئ، إنهم تلامذته، الأيدي الصغيرة تجره جراً إلى الخارج، يقفزون فرحاً، اصطنع ابتسامة وسألهم:

- ماذا حدث؟

- لقد تم إيصال الكهرباء إلى قريتنا، انظر يا أستاذ!

وكم استغرب لأنه لم يلحظ الأعمدة والأسلاك والعمال منذ مدة.

الفرح يستبد به كما يستبد بالصغار، يبتسم ربما أول مرة منذ زمن بعيد، القرية رائعة حتى نبات الصبار يبدو رائعا تحت الأضواء، المئذنة البيضاء شامة القرية تتلألأ نوراً وبهاءً ، الأيدي الصغيرة تجذبه، تتشابك مكونة دائرة، وتغني الحناجر المبحوحة بالفرح، ولأول مرة، يرى الفرح يتلألأ في أعينهم كالندى على عشب أخضر، وابتساماتهم العذبة كبراعم على وشك أن تتفتح.

يتجه نحوه شاب، يعانقه، يحدق في قامته الطويلة متسائلا من يكون، ويبادر الشاب في استحياء:

- أنا عبد الإله، تلميذك.. ومهندس مشروع كهربة قريتنا.

ويهتف أحمد:

- وداعا للشمع والظلام.

ويعانق المدرس تلميذه، وهو مأخوذ بجمال الجبال والقرية والمئذنة.